حل مشكلة الأكراد

عبد الستار قاسم
13/محرم/1429
الأكراد يعانون، ومن المفروض أن تعترف كل الدول المعنية، السابقة واللاحقـة، بمعانـاتهم، وأن تعمل على إزالتها. خلق الاستعمار المشكلة للأكراد ولأغلب الدول التي يتواجدون فيهـا، واستنزف بذلك الطاقات من خلال صراعات وحروب ما كان يجب أن تنشب. أهل المنطقـة جميعا وقعوا أسرى المشاكل التي صنعها الاستعمار خلفه لتأكل خيـرات المنطقـة ولتـذهب بأبنائها ضحايا، ولتوقع البغضاء والكراهية بين الشعوب.
بين الفينة والأخرى يتردد في الإعلام اقتتال بين أكراد يبحثون عـن الـذات ودول تتمسـك بتكاملها الجغرافي والسكاني. على مدى سنين طويلة، خاض الأكراد معـارك ضـد الجـيش العراقي، وقاموا بعمليات عسكرية ضد منشآت ومؤسسات عراقيـة، ومنـذ سـنوات أيضـا والأكراد في إيران يقومون ببعض التمرد ويتحرك الجيش الإيراني ضدهم، وفي تركيا التـي يتواجد فيها أكبر عدد من الأكراد فحدث ولا حرج. لقد تكبد الأكراد خسائر كثيرة جـدا فـي النفوس والأموال والممتلكات، واضطر أكراد كثيرون إلى اللجوء في دول الجوار؛ وتكبـدت الجيوش الكثير من الخسائر والمعاناة، ودفع مدنيون ثمنا باهظا في معظم الدول التي يتواجـد فيها الأكراد. وما زلنا نشهد حتى الآن صراعا دمويا هنا وهناك، ونشهد مسارح حربية تكلف الكثير ماديا ومعنويا.

المشكلة الكردية تفرض الاقتتال
هناك مشكلة قائمة اسمها المشكلة الكردية، والذي لا يقر بوجودها إنما يحاول دس رأسه فـي الرمال. هناك حوالي عشرين مليون كردي (نحن لا نعرف الرقم بالتحديـد) ينظـرون إلـى أنفسهم على أنهم قوم واحد ومن حقهم كباقي الأقوام أن يعيشوا معا مستقلين في هدوء وسـلام على منطقة جغرافية لهم. إنهم أكراد أصحاب مشاعر قومية، وتنغرس فيهم مشاعر الانتمـاء والرغبة في النهوض وتأكيد الذات. وما دامت هذه المشاعر موجودة، فإن علينـا أن نتوقـع انبثاقها إلى عمل ملموس أو حراك بين الحين والآخر. وبما أنها مشاعر قومية فإنها لا مفـر ستصطدم بالدولة التي يسود فيها قوم غير أكراد. هـم سيصـطدمون بـالأتراك وبـالعرب والإيرانيين والأرمن.
الدول التي تعتبر المناطق الكردية جزءا من أراضيها لا تقبل بالتمرد أو الثورة المسلحة أو المقاومة، ودائما لديها الاستعداد لمواجهة ذلك بالقوة. ليس من المتوقع أن تستسلم الدول المعنية أمام الأكراد وأن تقدم لهم ما يريدون على طبق من فضة. لا أرى في الأفق أن دولة ستقول للأكراد: "نعم أنتم شعب مظلوم، وأنا أوافق لكم على استقلال." ذهبت بعض الدول إلى إعطاء الأكراد حكما ذاتيا محدودا، لكنها لم تصل إلى درجة عالية من تأكيد الذات الكردية، ولم تشمل مبادراتها كل الأكراد. ما دام الأمر كذلك فإنه من المتوقع أن يبقى النزيف مستمرا، وأن يذبح الأكراد والعرب والإيرانيون والأتراك. هذا أمر غير منطقي ومن المفروض أنه مرفوض من شعوب المنطقة العربية الإسلامية وحكوماتها. نحن شعوب نتحدث دائما عن الحرية والانعتاق من نير المستعمرين والمحتلين، ونجاهد ضد المستغلين الذين ينهبون الثروات ويزرعون بذور الفتن والفساد بين شعوب المنطقة ودولها. نحن في المنطقة العربية أحق الناس في الاعتراف بحقوق الآخرين والدفاع عنها. وإذا كنا لا نريد أن نفعل ذلك، فإن علينا أن نتحمل ثمن ذلك. ربما يهدأ الأكراد حينا، لكن المشكلة ستبقى قائمة وستنفجر بين الحين والآخر، وسنبقى جميعا في صراع دموي لسنا بحاجة إليه، ويجب ألا نسعى إليه.

الاعتراف بالأكراد

الأكراد عبارة عن شعب واحد، ومن حقهم أن يعيشوا شعبا واحدا في إقليمهم الجغرافي الـذي يتواجدون فيه. أنا كعربي، لي مآخذ على الأكراد وعلى رأسها التعاون مع إسرائيل والولايات المتحدة، لكنني أدرك أن أغلب القادة العرب يتحالفون مع إسرائيل، ويقومـون علـى خدمـة الولايات المتحدة. على الرغم من ذلك، لا بد من البحث عن حل للمشكلة الكردية، ويجـب ألا يبقى الأكراد ملاحقين ومطاردين من قبل عدد من الحكومات. المنطق يقول إنه يجب البحـث عن حل يجنب الأكراد والدول التي يتواجدون فيها الآلام والأحزان وسفك الدماء.

لدي ثلاث خيارات لحل المشكلة:

أولا: أن تندمج دول المنطقة في دولة إسلامية واحدة تعتـرف بالقوميـات وبحقـوق غيـر المسلمين كأفراد ومؤسسات على قدم المساواة مع المسلمين. عندها يصبح الأكراد، كغيـرهم من القوميات، سادة في دولتهم الواسعة. فكرة الاندماج هذه تنسجم مع مسألتين:

أ- تتطلع شعوب المنطقة عموما وبعض الأنظمة السائدة إلى نوع من الوحدة على أسـس إسلامية أو قومية وذلك بسبب مشاعر القربى والعديد من الهموم والمصالح المشتركة. على الأقل هناك حركات إسلامية في إيران والعراق وتركيا وسوريا تنادي بضـرورة وحدة المسلمين في كل مكان. هذا يعني أن الوحدة الإسـلامية سـتلقي خلفهـا كـل النزاعات القومية القائمة حاليا، وتجعل الخلافات حول الحدود أمرا من الماضي.

ب- الوحدة هي سمة العلاقات بين دول الجوار مستقبلا لأن العالم لا يحجـز الآن مكانـا للدول أو الكيانات الصغيرة. المستقبل هو للتكتلات الكبيرة التي تشكل قوة اقتصـادية وثقافية وأخلاقية وعسكرية كبيرة تستطيع أن تصمد أمام المنافسات العالمية الضـخمة التي تتصدرها الصين والهند والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي. ستتحطم الـدول الصغيرة تحت الأرجل وستبقى عبارة عن ملحق هامشي لهذه القوة أو تلك لكي تؤمن لها بعض الغذاء والحماية من الاعتداءات الخارجية. العاقلون على السـاحة العربيـة والساحة الإسلامية هم الذين يفكرون في إزالة الأنظمة القبلية والقطرية لصالح الوحدة الشاملة، على الأقل في المجالات الحياتية الحيوية.

ثانيا: أن تقام دولة كردية مستقلة في المناطق التي يشكل الأكراد فيها أكثرية. أي أن تُنتـزع المناطق ذات الأغلبية الكردية من جغرافية الدول القائمة لصالح إقامة دولة كرديـة. يتواجـد الأكراد في منطقة جغرافية واضحة ويسهل تحديدها وهم يتداخلون مع العرب أو الأتـراك أو الإيرانيين في بعض المواقع، لكن، بصورة عامة، هناك مناطق واسعة ومعروفة يشكل فيهـا الأكراد أغلبية ساحقة. ولنا أن نسأل: ماذا كنا نحن دول المنطقة سنفعل لو قام الاستعمار فـي بداية القرن العشرين بتأسيس دولة كردية؟ لم نكن لنعمل شيئا ولكنا قبلنا الأمر الواقع كما هو. لماذا نقبل تقسيم بلاد الشام؟ ولماذا نقبل حدودا فرضها الاستعمار علينـا؟ شـعوب المنطقـة وأنظمتها تعاني من مشكلة خطيرة جدا وهي تقديس ما فرضه الاستعمار علينا مـن تجزئـة وحدود سياسية، وكل واحد فرح بما أعطاه الاستعمار الغربي. فإذا كنا سنقبل ما كان يمكن أن يصنعه الاستعمار في بلادنا فلماذا لا نبادر إلى تصحيح كل خلل صنعه لنا الاستعمار وجعلـه مادة لنشوب الحروب فيما بيننا؟

ثالثا: أن تبقى المناطق الكردية على ما هي عليه الآن، ولكن تقام منطقة كردية تتمتع بحكـم ذاتي واسع باتفاق الدول التي يتواجد فيها الأكراد بتواصل جغرافي عبر الحدود. أي أن تتبنى الدول المعنية مجتمعة حكما ذاتيا كرديا متواصلا جغرافيا محكوما بسيادات متعـددة. تكـون هناك حكومة حكم ذاتي مركزية ويختارها الأكراد بإرادتهم السياسية الحرة، ولكن دون نـزع سيادة كل دولة.

تقييم الاقتراحات

أنا لست متحمسا للاقتراح الثاني الذي يدعو إلى إقامة دولة كردية مستقلة لأنه صعب المنـال بسبب تمسك كل دولة بالحدود القائمة حاليا. الاقتراح معقول وأخلاقي لكنه مطروح في زمـن تعاني فيه العقلانية من ضيق كبير، وهو أخلاقي لأنه يتعامل مع الأكراد على قدم المساواة مع القوميات الأخرى. يعاني هذا الاقتراح من مشكلة تكريس التجزئة التـي لـم تخـدم العـرب والمسلمين ولن تخدمهم مستقبلا.

الاقتراح الأول الداعي إلى الوحدة هو الأسهل والأنسب في عالم لـم يعـد يحتـرم الكيانـات الصغيرة، لكنه يحتاج إلى واقع ثقافي وفكري مختلف عما هو سائد الآن. العصبوية والتشـنج القومي والقبلي ما زالت تسيطر على العلاقات العامة في مجتمعات دولنا في المنطقة العربيـة والإسلامية، وحتى يكون بمقدورنا الوحدة، لا بد أن تبادر الأنظمة إلى تبنـي بـرامج ثقافيـة جديدة تطيح بعصبوية الماضي لصالح الانفتاح الأخوي والاحترام المتبادل.

أما الاقتراح الثالث فممكن أيضا على الرغم من تعقيده، وتطبيقه أكثر سهولة من الاندماج. هذا اقتراح معقد لأنه يحمل مستويين: مستوى حكم ذاتي مركزي يشمل كل المناطق الكردية عبر الحدود، ومستوى المحافظة على سيادات الدول المعنية على المناطق الكردية داخل حـدودها السياسية القائمة حاليا. هناك تداخل كبير بين صلاحيات الحكم الذاتي المـدني وبـين أعمـال السيادة لكل دولة، وهناك صعوبة في تحديد متى تبدأ أعمال الحكم الذاتي ومتى تنتهي أعمـال السيادة. والمشكلة الصعبة جدا تتمثل في انتقال الأكراد من منطقة كردية إلى أخـرى، وفـي جمعهم في بوتقة مدنية واحدة وتوزيعهم في نفس الوقت على سيادات متعددة.

يحتاج الاقتراح الثالث إلى دراسات ومشاورات مكثفة، لكنه عملي وممكن بخاصة عندما تتوفر النية لحل المشكلة الكردية.

المبدأ هو أساس الحل

قد تتعدد الاقتراحات حول حل المشكلة الكردية، لكن الأهم هو نوايا الدول التي يتواجـد فيهـا الأكراد. هل لدى الدول القائمة حاليا نية الاعتراف بالأكراد كقومية لهم حق الاستقلال وتأكيـد الذات، أو حق المشاركة في الحكم وبناء الدولة على قدم المساواة مع غير الأكراد؟ هل لـدى الدول الاستعداد للاعتراف بآلام الأكراد وأحزانهم وبحقوقهم؟ هل لدى هذه الدول نية التعامـل على أساس الاحترام المتبادل والعمل الجماعي والتعاون مـن أجـل مسـتقبل أفضـل لكـل القوميات؟

هناك مشكلة حقيقية قائمة وهي أن الدول لا ترى أن للأكراد حقا يجب أن يدافعوا عنـه، وأن عليهم أن ينصاعوا لما تفصله لهم الدولة المركزية. هذا إجحاف وظلم. لا يلوح بالأفق وجـود سياسيين عقّال يسعون نحو حل للمشكلة الكردية، وأغلب السياسيين يضـعون أيـديهم علـى الزناد.

انتماء الأكراد للمنطقة

من المهم جدا ألا تأخذ الأكراد العزة بالإثم فيذهبون إلى التعاون مـع مـن لا يضـمر لهـم ولشعوب المنطقة خيرا. إذا كان للأكراد مشكلة مع الحكومة في بغداد فإن الحل لا يأتي عبـر إسرائيل والولايات المتحدة. أمريكا استعملت الأكراد في شمال العراق، وهم طوعوا أنفسـهم لهذا الاستعمال، وكانوا عونا للغزو الأمريكي على العراق. ويتردد الآن بأن رجال الموسـاد الصهيوني يعملون في شمال العراق ضد إيران، ومن المحتمل أن تنطلق طائرات إسـرائيلية لضرب إيران من المناطق الكردية. هذه أمريكا التي قالت لهم بأنها صديقة لهم سمحت لتركيا باستعمال القوة العسكرية ضد الأكراد الذين يظن أنهم يختبئون في شمال العراق. أمريكا تدعم الأكراد في العراق وتقتلهم في تركيا.

من المهم أن يدرك الأكراد أن إسرائيل وأمريكا تعملان من أجل مصالحهما وليس دفاعا عـن مبادئ وقيم إنسانية وأخلاقية. إذا كان مطلوب من العرب والإيرانيين والأتـراك الاعتـراف بحقوق الأكراد والبحث معا عن حل، فإنه مطلوب من الأكراد أيضا البقاء فـي المنطقـة وألا يكونوا أدوات لغزاة محتلين.